الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم

الدكتور حسن أبو عليوى

استاذ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية
(قسم الأدب العربي)
الفرع الخامس ـ صيدا

إذا أردنا أن نتحدّث عن معجزة القرآن الكريم وبلاغته، فإننا لا بدّ أن نتناول دقّة اللفظ، أو دقّة التعبير، وكلام الله سبحانه وتعالى يجب أن يكون في غاية الدقّة، بحيث يعبّر عن الشيء تعبيراً كاملاً، فلا نجد حرفاً زائداً بلا معنى، وتتجلى معجزة القرآن الكريم بأوجه مختلفة، علمية ولغوية وبلاغية وغيبيّة وغيرها. وما يعنينا في هذا المجال تبيان الإعجاز البلاغي فيه، وما اشتمل عليه من آيات كريمة نهل منها البيانيون والبلاغيون، فكان القرآن الكريم نبعاً نميراً، ومعدناً أصيلاً للبلاغة العربية عبر مختلف العصور، استقى منه البلغاء، وتمثّلوا بآياته، وارتشفوا من معينه العذب، وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تثبت إعجازه وسبكه اللفظي، فقد وردت آيات تؤكد أن هذا الكتاب مبين، وليس فيه اعوجاج في البيان والدلالة، كما أنه معجز في ألفاظه وسبكه وصياغته ونسجه كالآية المباركة: ﴿إنّا جعلناهُ قرآناً عربياً لعلّكم تعقلون﴾[1]. ولا تنقصنا الشواهد في هذا الميدان، فقد جاء في الآية الكريمة: ﴿قرآناً عربيّاً غير ذي عوجٍ لعلّهم يتّقون﴾[2]، والآية: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني، تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربّهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله﴾[3]. فرغم تشابه

(١) سورة الزخرف، آية: ٣.
(٢) سورة الزّمر، آية: ٢٨.
(٣) سورة الزّمر، آية: ٢٣.

آياته وتكرارها وتثنيتها (كبعض القصص والأحكام)، فإنها تبقى أحسن الحديث ولا تملّ، وهذا هو إعجاز القرآن.

لقد أكّدت آيات التحدّي بوضوح هذا الإعجاز، إذ وردت آيات عديدة في هذا السياق، كقوله تعالى: ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**﴾(٤). وبلغ التحدّي ذروته في مخاطبة المشركين بالإتيان بعشر سورٍ، أو بسورة واحدة: ﴿**وإن كنتم في ريبٍ ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾(٥).

كما وردت الآية الكريمة التالية بالسياق نفسه: ﴿**أم يقولون افتراه قُلْ فأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنّما أنزل بعلم الله**﴾(٦).

ولعلّ الإشارة للإعجاز اللفظي في هذا التحدّي واضحة أشدّ الوضوح. ورد في الأحاديث أن الوليد بن المغيرة قد قال في وصف القرآن الكريم بعد سماع آياته: «إن فيه لحلاوة، وإن عليه لطلاوة»، إذ وجد في آيات القرآن عظمة ورفعة، ورغم جحوده وإنكاره، فنزلت الآية الكريمة على لسانه أنه قال: ﴿**إن هذا إلاّ سحر يؤثر، إن هذا إلاّ قول البشر**﴾(٧).

ويتجلّى الإعجاز البلاغي في قضية المجازات القرآنية التي توقّف عندها عدد كبير من النقّاد والبلاغيين، ومن هؤلاء: أبو عبيدة(٨)، الجاحظ(٩)، ابن قتيبة(١٠)، والشريف الرضي(١١)، وغيرهم...

---

(٤) سورة الإسراء، آية: ٨٨.

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٣.

(٦) سورة هود، آية: ١٣ و١٤.

(٧) سورة المدّثر، آية: ٢٥.

(٨) أبو عبيدة هو معمر بن المثنّى (٢٠٩ هـ/ ٨٦٥ م)، ترك طائفة من الكتب، زادت على المائة، كما عدّها محمد بن النديم صاحب الفهرست ص ٥١. ومن أشهر كتبه «مجاز القرآن»، وأبو عبيدة من كبار اللغويّين والنحويّين.

(٩) هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب، الملقّب بالجاحظ (٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م)، من كبار الكتّاب في العصر العبّاسي، من أشهر مؤلفاته: «الحيوان»، «البيان والتبيين»، و«البخلاء».

(١٠) ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله ٨٢٨ - ٨٨٩ م) ويُعرف بالكوفي أو الدِّينوري، ولد بالكوفة، وعاش زمناً في دينَور قاضياً، خراسانيّ الأصل، فقيه محدّث ومؤرّخ ونحوي وأديب، قصد البصرة واتّصل بالجاحظ، ثم انتقل إلى بغداد وتوفي فيها. من مؤلفاته: «الشعر والشعراء»، «أدب الكاتب»، «عيون الأخبار»، «كتاب المعارف»، و«تأويل مشكل القرآن».

(١١) الشريف الرضي هو أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي (٤٠٦ هـ/ ١٠١٦ م) يرتفع بنسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، أسندت إليه نقابة الطالبيين مراراً، وإمارة الحجّ والنظر في المظالم، ولُقّب بالطاهر ذي المناقب، وبالطاهر الأوحد. فقيه وشاعر بليغ، جمع كتاب نهج البلاغة (وهو المختار من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام)، وترك مؤلفات كثيرة منها: ديوان شعر كبير، و«تلخيص البيان في مجازات القرآن»، و«المجازات النبوية» وغيرها. =

ونبدأ في بداية الأمر بدراسة المجاز القرآني، وبعد ذلك نتابع مسألة المجازات عند عدد من البلاغيين من خلال الشواهد العملية.

١ ـ القرآن بين الحقيقة والمجاز:

لم يكن قبول فكرة المجاز في القرآن الكريم أمراً سهلاً عند المسلمين جميعاً، فهم مجمعون ـ على اختلاف مللهم ونحلهم ـ على وقوع الحقيقة فيه. و«الحقيقة» عندهم هي كل لفظٍ بقي على موضوعه دون تقديمٍ وتأخير فيه.

أمّا «المجاز» ـ المقابل للحقيقة ـ فمعظم المسلمين مقرّون بوقوعه في القرآن الكريم، ولا ينكره إلاّ القليل[١٢]. واعتقاد هؤلاء أنّ المجاز غير الحقيقة، فهو كذب، والقرآن منزّه عن الكذب، كما أنّ المتكلّم لا ينصرف عن الحقيقة إلى المجاز إلاّ إذا ضاقت به الحقيقة، أو عجز عن التعبير بها فيستعير، وذلك محال على الله تعالى القادر المنزّه عن العجز.

هذه هي حجج المنكرين لوقوع المجاز اللغوي والعقلي في القرآن الكريم. وقد ردّ على هذه المسألة جماعة من علماء المسلمين[١٣]. وأوردوا حججاً وبراهين قاطعة في هذا المجال: فلو كان المجاز كذباً، لكان أكثر كلامنا فاسداً.

ولو سقط المجاز من القرآن، لذهب منه شطره الحسن، لأن المجاز أبلغ من الحقيقة. والظاهرية[١٤] ينكرون وقوع المجاز في القرآن، إلاّ ما كان منه مشهوراً، وكانت القرينة واضحة معلنة عنه، كاشفة له، فإذا غمض المجاز، أو خفيت القرينة فإنهم لا يأخذون به، لأنهم يتمسّكون بظاهر الكتاب والسنّة[١٥].

= راجع، كتاب «الشريف الرضي في أدبه وعصره» للدكتور حسن أبو عليوي، مؤسسة الوفاء ـ بيروت ١٩٨٦.

(١٢) ومن هؤلاء: الظاهرية: الذين يأخذون بظاهر الكتاب والسنّة، وابن القاصّ من الشافعية، وابن خُوَيْزمنداد من المالكية، وابن حزم الأندلسي.

(١٣) ومن الذين ردّوا على المفكرين: ابن قتيبة الذي يقول بحرارة في كتابه: «تأويل مشكل القرآن» ص ٧٥: «ولو كان المجاز كذباً... كان كلامنا فاسداً، لأنا نقول: نبت البقل وطالت الشجرة، وأينعت الثمرة، وأقام الجبل، ورخص السعر، ونقول كان هذا الفصل منك في وقت كذا وكذا، والعقل لم يكن وإنما كوّن». وجلال الدين السيوطي (٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م) حيث يقول: «وهذه شبهة باطلة... فقد اتفق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، ولو وجب خلوّ القرآن من المجاز وجب خلوّه من الحذف والتوكيد وتثنية القصص وغيرها». السيوطي، «الاتقان في علوم القرآن» ٢/٣٦.

(١٤) الظاهرية: هم أتباع داود بن علي الظاهري (٢٧٠ هـ/ ٩٢٤ م)، وعذرهم في إنكار وقوع المجاز في القرآن، تمسكهم بظاهر الكتاب والسنّة، كما يدل على ذلك اسمهم. وقد جرى ابن حزم الأندلسي (٤٥٦ هـ/ ١١٠٤ م) مجرى الإمام داود الظاهري في الأخذ بالمجاز المشهور الواضح وعدم التأويل فيه، فإن المجاز لا يخرج الكلام عن الدلالة الظاهرة الواضحة المبيّنة، ما دامت له قرينة واضحة، الشيخ محمد أبو زهرة، «ابن حزم في حياته وعصره» ص ٢٢٦.

(١٥) محمد عبد الغني حسن، مقدمة كتاب «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، ص ٥٦.

٢ ـ أبو عبيدة ومجازات القرآن:

كان أبو عبيدة أوّل من صنّف في مجازات القرآن من خلال كتاب يحمل العنوان نفسه، والمتفحّص لكتابه يرى بوضوح أنه يعني بالمجاز تفسير المعنى للألفاظ القرآنية. فأبو عبيدة يتناول القرآن كله سورة سورة، فيعرض ما في كل سورة من الألفاظ يشرحها لغوياً، ويفسّر غريبها ويقيم إعرابها، ذاكراً من الشعر العربي الفصيح ما يؤيّد المعنى الذي ذهب إليه.

فالمجاز عنده هو تفسير المعنى من غير النظر إلى الاصطلاح البياني، الذي لم يظهر في القرن الثاني الهجري، ولفظة «المجاز» عنده لا يمكن أن توضع اصطلاحاً في مقابل «الحقيقة»، كما فعل البيانيون في تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز، وهي تساوي عنده طريقة الجواز إلى فهم اللفظة القرآنية، فأبو عبيدة يفسّر ألفاظ القرآن على طريقة اللغويين لا البيانيّين. فكتابه أقرب إلى تفسير غريب القرآن منه إلى الكشف عن وجوه البيان فيه بالمعنى الذي يريده علماء البيان، بل هو معجم لمعاني القرآن[١٦].

وسنقدم بعض الأمثلة من كتاب أبي عبيدة لتأكيد ما ذهبنا إليه. من ذلك رأيه في مجاز قوله تعالى: ﴿عذاب أليم﴾: «أي موجع من الألم، وهو في موضع مفعل....».

أو كقوله في تفسير: ﴿في طغيانهم يعمهون﴾[١٧]: أي يغيّهم وكفرهم، يقال: رجل عِمٌ وعامِهٌ. أي جائر عن الحقّ...[١٨].

٣ ـ الجاحظ ومجازات القرآن:

لعل الجاحظ هو أول من استعمل المجاز في القرآن الكريم بالمعنى المقابل للحقيقة، على نحو يقرب من استعمال البيانيين المتأخرين. وبهذا يكون أبو عثمان أول مصنّفٍ عربي استعمل لفظتي المجاز والاستعارة بمعنى يتّفق مع قصد البلاغيين المحدثين. فنراه في مواضع متفرقة من كتابيه: (الحيوان، والبيان والتبيين) يشير إلى المجاز والاستعارة. لذلك يُعدّ الجاحظ أول رائد للبلاغة العربية بمعناها الاصطلاحي الذي أخذ يتطور مع الزمن، حتى بلغ قمته على يد الجرجاني والسّكاكي وابن الأثير وغيرهم من أعلام البلاغة الفنيّة[١٩]. ومن أول اللّمع البيانية عند الجاحظ قوله في كتابه (الحيوان): (باب آخر في المجاز والتشبيه بالأكل، وهو قول الله عزّ

---

(١٦) المرجع نفسه، ص ٧.

(١٧) سورة البقرة، آية: ١٥.

(١٨) أبو عبيدة، «مجازات القرآن»، ص ٨.

(١٩) عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ/ ١٠٧٨ م)، وهو مؤلف «أسرار البلاغة» في علم البيان، و«دلائل الإعجاز» في علم المعاني. السّكّاكي (٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م) صاحب الكتاب المشهور «مفتاح العلوم». ضياء الدين بن الأثير (٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩ م) صاحب: «المثل السائر»، و«البرهان في علم البيان».

وجلّ: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾، وقوله عزّ اسمه: ﴿أكّالون للسُّحتِ﴾، وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة، ولبسوا الحلل، وركبوا الدّواب، ولم ينفقوا منها درهماً واحداً في سبيل الأكل. وقد قال عزّ وجل: ﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ وهذا مجاز آخر)[٢٠].

وقد قال الله تعالى: ﴿إنّ الله مُبْتليكم بنهرٍ، فَمَنْ شرب منه فليس منّي، ومن لم يَطْعَمْه فإنه منّي﴾[٢١]. يريد: لم يذق طعمه. فالمجاز عند الجاحظ هو استعمال اللفظ في غير ما وضع له، على سبيل التوسّع من أهل اللغة، ثقة من القائل بفهم السامع. لقد كان الجاحظ أول من استعمل المجاز بمعنى تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه.

هذه اللفتات البيانية الوجيزة كانت الأساس الذي بني عليه صرح البيان العربي. ولكنّ هذه اللمع البيانية عند الجاحظ لا نراها من الكثرة بحيث تكوّن مذهباً بيانياً قائماً بذاته، وإنما كانت معالم طريق لمن جاؤوا بعده، فقد أفاد منها بشكل خاص تلميذه ابن قتيبة[٢٢].

٤ ـ ابن قتيبة ومجازات القرآن:

توسّع ابن قتيبة في نظرته إلى الاستعارة والمجاز أكثر من الجاحظ، فخطا باللّمع البيانية خطوة وسّعت دلالات كثير من الألفاظ والاصطلاحات التي أخذت تظهر بعد ذلك بالتدريج في علوم البلاغة[٢٣].

فهو يعقد في كتابه «تأويل مُشْكِل القرآن» بابين: أولهما في المجاز، وثانيهما في الاستعارة، فيتحدّث عن المجاز في القرآن الكريم، ويكثر من الأمثلة التي يخرجها بشكل مجازي، ولا يكتفي بالقرآن وحده، وإنما يتحدث عن الإنجيل أيضاً[٢٤].

(٢٠) الجاحظ، «الحيوان» ٥/٢٥ ـ سورة النساء آية: ١٠.

(٢١) سورة البقرة، آية: ٢٤٩.

(٢٢) أشار إلى هذا التلمذ على الجاحظ في كتابه «عيون الأخبار» في غير موضع، إذ يقول: «وفيما أجاز لنا عمرو بن بحر من كتبه». وقد تحدّث عن ألفاظ القرآن في كتابه «تأويل مشكل القرآن».

(٢٣) نراه يقول في كتابه «تأويل مُشْكِل القرآن» ص ١٥ ـ ١٦: «وللعرب المجازات في الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة والتمثيل، والقلب والتقديم والتأخير، والحذف والتكرار، والإخفاء والإظهار، والتعريض والإفصاح، والكناية والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجمع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص...».

(٢٤) فينكر من يرون من النصارى أبوّة الولادة في قول السيد المسيح عليه السلام: «ادعو أبي، وأذهب إلى أبي»، ويفسّر هذا القول تفسيراً مجازياً قائلاً: «ولو كان المسيح قال هذا في نفسه خاصة دون غيره، ما جاز لهم أن يتأولوه هذا التأويل في الله، تبارك وتعالى عمّا يقولون علوّاً كبيراً، مع سعة المجاز، فكيف وهو يقوله في كثير من المواضع لغيره؟ كقوله حين فتح فاه بالوحي: «إذا تصدّقْتَ فلا تعلم شمالك بما فعلت يمينك، فإن أباك الذي يرى الخفيّات يجزيك به علانية، وإذا صلّيتم فقولوا: يا أبانا الذي في السماء، ليتقدّس اسمك، وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلاّ يعلم بذلك غير أبيك...». ابن قتيبة، «تأويل مشكل القرآن» ص ٧٦.

والحق يقال إن الاشتغال بالقرآن الكريم ودراسته وتفسيره كانت أسباباً قوية لظهور هذه المجادلات حول المجاز والاستعارة ظهوراً مميّزاً، لأن عصر ابن قتيبة شهد تطوّراً كبيراً في علم الكلام، فاشتدّ الجدل والنقاش بين المتكلّمين(٢٥)، حول الله وصفاته، وأفعاله وذاته، وفي العدل والجبر والاختيار، فاختلفوا في تفسير آيات الله البيّنات، فمنهم من يقول بالكلام على وجه الحقيقة، ومنهم من يفسّر على سبيل المجاز(٢٦).

أمّا الباب الذي عقده ابن قتيبة للاستعارة في كتابه، فهو لا يقلّ فائدة عن باب المجاز، وتكاد تتّفق ألفاظه مع ما استعمله البيانيون فيما بعد(٢٧). فقد كشف الاستعارة في عشرات الآيات القرآنية، ولعلّ الشريف الرضي في كتابه «تلخيص البيان في مجازات القرآن» تأثّر بابن قتيبة، فسار على طريقته، ولكن بشكل موسّع ومنهج مميّز، فلم يأت المجاز والاستعارة عنده لُمعاً متفرّقة في ثنايا كتابه، بل كان «تلخيص البيان»(٢٨) يعبّر عن هدف واحد، لأنه أُلّف لغرض محدّد، وهو متابعة المجازات والاستعارات في كلام الله سورة سورة وآية آية، وهذا ما سنكشفه لاحقاً.

٥ - الشريف الرضي ومجازات القرآن:

أفاض الشريف الرضي وتوسّع في بيانه، وأطال الشرح في تعليقاته ليتّضح المراد، فجاءت مادته أغزر ممّن سبقه في [illegible] كيان المجاز في قوله تعالى: ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأتِ، وتقولُ هل من مزيد﴾(٢٩)

---

(٢٥) لقد اتّسع المجاز والاستعارة في هذا العصر بسبب تطوّر علم الكلام، وتميّز عصر ابن قتيبة بظهور طائفة من المتكلّمين من أمثال: أبي الهذيل العلّاف (٢٣٥ هـ/ ٨٤٩ م)، وأبي علي محمد بن عبد الوهّاب الجبائي (٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م).
محمد عبد الغني حسن، مقدمة «تلخيص البيان» ص ٨.

(٢٦) مثل قوله تعالى في سورة النساء، آية: ١٦٤: ﴿وكلّم الله موسى تكليماً﴾ فمنهم من يقول بالحقيقة لا على سبيل المجاز، بدليل توكيد الفعل بالمصدر تكليماً. ومنهم من يقول بالكلام على وجه المجاز، وابن قتيبة يورد الكلام على سبيل الحقيقة، لأن أفعال المجاز لا تخرج منها المصادر، ولا تؤكد بالتكرار، فأكّد بالمصدر معنى الكلام، ونفى عنه المجاز.
ابن قتيبة، «تأويل مُشْكِل القرآن» ص ٨٢. شرح ونشر السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨١.

(٢٧) فمن أقواله: «فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة، إذا كان المسمّى بها بسبب من الأخرى، أو مجاوراً لها، أو مشاكلاً، فيقولون للمطر سماء لأنه من السماء ينزل...» المصدر نفسه، ص ١٠٢.

(٢٨) نشر الأستاذ محمد المشكاة - المدرّس بجامعة طهران - مخطوطة الكتاب المصوّرة بإيران سنة (١٣٦٩ هـ/ ١٩٤٩ م)، وألحق بها فهارس إضافية، وكتب لها مقدمة في بضع صفحات، كما كتب حسين علي محفوظ مقدمة للكتاب في ثماني صفحات. وقد حقّق الكتاب وقدّم له، وعلّق عليه محمد عبد الغني حسن سنة ١٩٥٥ م، مع مقدمة واسعة عن حياة الشريف الرضي، وطبع في مصر. ثم طبع في بيروت بدار الأضواء طبعة ثانية سنة ١٩٨٦.

(٢٩) سورة ق، آية: ٣٠.

ثبت تاريخ
موضوع

يقول الشريف الرضي في تعليقه على هذه الآية: (وهذه استعارة، لأن الخطاب للنار، والجواب منها في الحقيقة لا يصحّان. وإنما المراد ـ والله أعلم ـ أنها فيما ظهر من امتلائها، وبان من اغتصاصها بمنزلة الناطقة بأنه لا مزيد فيها، ولا سعة عندها، وذلك كقول الشاعر:

امتلأ الحوضُ وقال قَطْني
مهلاً رويداً، قد ملأتَ بَطْني[30]

ولم يكن هناك قول من الحوض على الحقيقة، ولكنّ المعنى: أنّ ما ظهر من امتلائه في تلك الحال جارٍ مجرى القول فيه، فأقام الأمر المُدْرك بالعين مقام القول المسموع بالأذن. وقيل المعنى: إنّا نقول لخزنة جهنّم هذا القول، ويكون الجواب منهم على حدّ الخطاب. ويكون ذلك من قبيل ﴿واسْألِ القريةَ﴾[31]، في إسقاط المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. وذلك كقولهم: «يا خيلَ الله اركبي». والمراد: يا رجال الله اركبي، وعلى القول الأول، يكون مخرج هذا القول لجهنّم، على طريق التقرير لاستخراج الجواب بظاهر الحال، لا على طريق الاستفهام والاستعلام، إذ كان الله سبحانه قد علم امتلاءها قبل أن يظهر ذلك فيها. وإنما قال سبحانه هذا الكلام ليُعلم الخلائق صحّة وعده. إذ يقول تعالى: ﴿لأملأنّ جهنم من الجنةِ والناسِ أجمعين﴾[32]. والوجد في قوله تعالى في الحكاية عن جهنّم: ﴿هل من مزيد﴾ بمعنى: لا من مزيد فيّ. وليس ذلك على طريق طلب الزيادة، وهذا معروف في الكلام، ومثله قوله ـ عليه السلام ـ «وهل ترك عقيلٌ لنا من دار؟»: أي ما ترك لنا داراً[33].

لقد أظهر الشريف الرضي أن اغتصاص جهنّم بأهلها، كان بمنزلة النطق منها، إذ لا زيادة فيها ولا سعة عندها، كما أيّد ذلك المجاز بقول الشاعر: امتلأ الحوض... فإن الحوض لا يتكلّم وكذلك جهنّم، ولكن ما يظهر من امتلاء الاثنين جرى مجرى النطق منهما. ثم أبان بعد ذلك أنه يجوز أن يكون المراد بالقول لجهنّم هو القول لأهلها، فكأن الله تعالى قال: يوم نقول لأهل جهنم، وهذا المجاز جائز لغة، وهو الذي سمّاه البيانيون اصطلاحاً فيما بعد، بالمجاز الذي علاقته المحلية، لأن جهنّم محلّ لأهلها، فكأنه ذكر المحلّ وأراد الحالّ.

من خلال ما تقدم، نرى بوضوح أنّ

---

(٣٠) قال قَطني: أي حسبي، الشريف الرضي، «تلخيص في مجازات القرآن» ص ٥٤.
(٣١) سورة يوسف، آية: ٨٢.
(٣٢) سورة هود، آية: ١١٩.
(٣٣) حديث نبوي شريف، قاله الرسول (ص): يوم فتح مكة، حين مضى الزبير بن العوّام برايته حتى ركزها عند قبّة رسول الله، وكان معه أمّ سلمة وميمونة، وقيل: يا رسول الله، ألا تنزل منزلك من الشعب؟ فقال: وهل ترك عقيل لنا منزلاً؟ وكان عقيل بن أبي طالب قد باع منزل رسول الله (ص) ومنزل إخوته (الشريف الرضي، «تلخيص البيان» ص ٤١).

الشريف الرضي يدعم وجهة نظره ـ في حديثه عن المجازات والاستعارات القرآنية ـ بشواهد متنوعة: من الآيات القرآنية المشابهة للمعنى الذي يؤوّله، إلى الأحاديث النبوية الشريفة، والأشعار العربية الفصيحة لفحول الشعراء، التي تتناسب مع ما يرمي إليه، فضلاً عن توسّعه وتشعّبه في شرح المجازات القرآنية، حتى لا يترك مجالاً لسائل، أو زيادة لمستزيد.

تناول الشريف الرضي في كتابه «تلخيص البيان» كل آية فيها مجاز وفق ترتيبها من السورة التي هي فيها، وهكذا فعل في القرآن كلّه، بحسب ترتيب السّور في المصحف. وقد بذل جهوداً كبيرة وقيّمة في كشفه وإدراكه كنه الأسرار البلاغية في القرآن الكريم.

ولعلّ الشواهد القرآنية البلاغية التي تثبت إعجاز القرآن الكريم أكثر من أن تحصى، فالمجال لا يتّسع هنا لمزيد من التفاصيل والأدلّة، فنكتفي بهذا القدر، على أمل متابعة الدراسات القرآنية من مختلف جوانبها في بحوث شاملة.

هذه جوانب يسيرة من عظمة القرآن الكريم، تكشف عن بعض المواطن في سرّ إعجازه، لقد سحر الجنّ وأثار دهشتهم **﴿فقالوا إنّا سمعنا قرآناً عجباً، يهدي إلى الرشد فآمنّا به ولن نشرك بربّنا أحداً﴾**(٣٤).

هذا القرآن عجيب في سموّ معانيه، مدهش في عمق أسراره، يأسر العقول ويسحر الألباب، فتقف حائرة أمام حُسن بيانه وسرّ إعجازه، وهذا ما حمل الجنّ على الاهتداء بأنواره، والإيمان بعظمة الخالق.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

(٣٤) سورة الجن، الآيتان: ١ و ٢.